

رحلة إلى الشرق

تسللت إلى مكتبي لأعد الأوراق التي سأحملها معي للمؤتمر ولأدقن التقارير والمكتب في الأدراج كمن يتخلص من عبء ثقيل . لم تكن لي رغبة في التحدث مع أحد . ولا لسماع كلمات الوداع . فوجئت بباب الحجرة . يشتح وبأنوظف الكبير يطل منه بوجه يشبه وجه القط ائرومي المبتسم .

« صباح الخير . أتيت لأسلم عليك »

« أهلاً وسهلاً . تمفضل »

دخل وجلس . تهادت مستسلماً وضغطت على الجرس .

« فنجان قهوة ؟ »

« لا مانع »

جاءت القهوة . وانغمس الرجل في المقعد كمن يستعد لحديث طويل . راقبت حركاته بعين قلقة ، وهو يشعل سيجارته الطويلة ، ويمد ذراعه ليكشف عن أزرار قميصه الذهبية : ابتسم في نعومة وقال :

« أردت أن أودعك قبل أن تسافر . أرجو لك رحلة موفقة » .

« أشكرك على هذه اللقمة . أنت دائماً سباق » .

صمت لحظة ثم استطرد :

« ولكن هناك شيئاً لا أفهمه . ما الذي جعلك تختار السفر إلى آسيا لقد كنت أنا هناك منذ عدة سنوات ضمن وفد سافر مع أحد الوزراء . الجو هناك لا يطاق . . . حرارة عالية ، ورطوبة لم أشهد مثلها لا من قبل ولا من بعد . ثم هذه البلاد . . . الشقاء ، والبؤس الذي يقابلك في كل مكان . ستكون رحلة شاقة » .

نطق الكلمات كمن يشفق على حالي إسفاقاً شديداً ، وحلق في وجهي بعينين فاترتين فيهما طيبة. آثرت الصمت فأسقط رماد سيجارته في المنفضة وأكمل كلامه .

« أما أوروبا فهناك الراحة الحقيقية . الرقي ، والنظافة ، والمدن الحديثة ووسائل التسلية التي لا تنهى ، السفر بالنسبة إلى أوروبا ، أو أمريكا . وما عدا هذا فلا يستحق العناء . »

أثارني كلماته فقررت أن أخرج من الصمت .
« أنا لا أبحث عن الراحة . »

تطلع إلى مرة أخرى كمن يواجه شخصاً فقد اتزانته العقلي .
« عم تبحث إذن ؟ »

« أبحث عن الفهم . »

« وما الذي ستفهمه في بلاد آسيا . »

« لا أعرف . لذلك قررت أن أذهب . »

الطائرة الضخمة رايضة على الأرض : بطنها منتفخ كاخشرة الحباري ، والعلامات الحمراء تلمع عند ذيلها الطويل بأضواء تنذر بالخطر . شيء ما في وقفها يذكركنا بالطير الجارح يستعد للانقضاض . وصوت نسائي كسول يتكلف نطق الكلمات بوضوح فتضيع في مكان ما عند فتحات الأنف الداخلية يقول : « الطائرة جال ٥٤٠ ستقلع بعد نصف ساعة . » ثم تختصر الجملة في سلسلة من الكلمات غير المفهومة .

نيادلنا القبلات الحافظة ، الوجه الأسمر تحت هالة اشعر الأبيض ، والعينان اللامعتان في صفاء حاد لا يلين ، وعينا الطفل المرفوعتان إلى في تساؤل برىء وهو يقف منتصب القامة يسند رأسه إلى ردفها الأيسر : تحتوى وجهه من أجناب الآخر يدها الحانية بأصابعها الطويلة كأنها تريد أن تحميه . والفتاة الطويلة ترمقني بنظرة فيها جد من خلف النظارة

البيضاوية نوع من الانقصاص المتأمل ثم شاهد نذى ينتظر في هدوء نهاية أحداث تجرى أمامه .

كان ينبغي أن أشعر بالحزن ، أو بشيء ما يشبه الضيق ، أو بغصة في الحلق ، ولكنى لم أشعر بكل هذا . كنت أنا أيضاً كالمفرج ، المتأمل ، أنتظر ميعاد السفر مثلما ينتظر السجين فتح باب الزنزانة صباح يوم الإفراج . ليست اللهفة الحارقة القلقة ، التي لا تكاد تحمل لحظات الانتظار ، وإنما تطلع هادئ إلى أشياء ستحدث ، إلى تغيير في الحياة . إلى مبارحة الناس والأشياء التي أصبحت جزءاً ثابتاً متكرراً من حياة تتكرر على المنوال نفسه .

عقلى يقول لى إننى سأقدمهم ، ويسجل هذا الفقدان الوشيك بهدوء لا يهتز ، وذراعى - كالجناحين - تستعدان للطيران فى الفضاء الواسع . مررت من الباب الحديدى الصغير وانهمكت فى إجراءات السفر بشيء من الارتباك الداخلى الخفيف الذى ينتابنى كلما واجهت تجربة جديدة فى الحياة

جلست فى صالة الترانزيت أنتظر فى قلق إشارة الرحيل . على «الباب» جلس اثنان ، رجل وامرأة ، يدخان فى هدوء ، تبدو عليهما علامات التعود على التنقل بين مطارات العالم : الملابس الجلدية الأنيقة تلف الجسدين الفارعين : والشنط المربعة الصغيرة التى توضع فيها الأدوات الضرورية ، والحركات القليلة المدروسة من اليدين والرأس ، والحديث الهامس المطمئن للمسافر الذى يعرف متى ينبغي له أن يستعد للرحيل .

أخرجت كتاباً لأقتل الوقت ولكن ذهني أخذ يهرب من بين السطور . ووجدت نفسى أحلق فى رجل مربع الجسم أخذ يروح ويحىء بين المقاعد الجلدية الحمراء فى عصبية : ويدور بعينه على الناس كأنه يبحث بينهم عن أحد . فجأة اتجه نحو شاب يرتدى ملابس المضيف الزرقاء كان قد دخل على التو من أحد الأبواب . انهمكا فى حديث

طويل أمام صوان العطور . ثم انضمت إليهما مضيئة شقراء تبادلت
معهما بضع كلمات . ثم سارت نحو الباب المقضى إلى المطار . هي
تأبيل فوق كعبى حذاها العالين الرقيقين .

مرح ذهني وأخذ يسبح في قصة تريبيا خيالية ، شيء ما في
تصرفات الثلاثة كان غريباً . انتزعت من تأملاتي على صوت نسائي نفاذ
يقول : « نرجو من المسافرين على الطائرة جال ٥٤٠ أن يستعدوا لركوب
طائرهم » .

حملت حقيبتي نحو الباب . الزمن يمر سريعاً الآن ، فالحركة تختصر
الوقت . التفتيش . ثم الأتوبيس . رأيت مبنى المطار يتعد والناس
ينكمشون إلى نقاط منونة صغيرة تلوح من بعيد . صعدت إلى الطائرة
وأخذت مكاني بجوار النافذة . ابتعدت السلم المتقل عن باب الطائرة .

زحمت الطائرة ببطء فوق الممر ثم دارت حول نفسها لتقف عند أول
مجرى الصعود . علا صوت المحركات كالرعد . وقفز اذيكمل القضي
في سباقه الجنوني فوق الأرض . أحسست بانطين في أذني . وبدقات
القلب تسرع قليلاً . رأيت الجناح الضخم يلمع في ضوء الشمس .
وارتفعت الطائرة فجأة كأنها تتخلص من جاذبية الأرض بجهد عنيف .
نظرت إلى أسفل . القاهرة الآن تبدو كأنها خريطة الخضراء . أسندت رأسي
إلى ظهر المقعد وتركت نفسي تصعد مع الطائرة فوق موجة عارمة من
السعادة .

هكذا بدأت الرحلة .

قرانزيت

الطائرة اليابانية تسبح فوق السحب بهدوء محمولة على أجنحة حادة
تشق المساحات الزرقاء في إصرار . هنا في هذا العالم الصغير كل شيء
منروس بدقة ، الابتسامة التي تهتز فوق شفتي المضيئة وهي تنحني لـ ب

نك قدحاً من القهوة ، والظلاء الأبيض كمن القليل يريح العينين ، وزجاجة أنكولونيا الخضراء فوق الحوض المعدني . ومسند الرأس يدعوك لتنزه أو السرحان ، والنبض المنتظم يسرى في الجسد الطويل . غريبة هذه الحيرة . تنقلب في لحظة من قناع اندنيا إلى قمتها . قبل أن أسافر يوم واحد كنت متجهاً من مركز بسيون ، إلى قرينتا في سيارة عتيقة تن تحت وصاة الأجساد المحشورة في جوفها . . . عذاب لم تفلح الأحاديث الضاحكة في التخفيف من وطأته .

انترعني صوت المضيفة تدبغ بلكنة يابانية مثيرة للتوتر : « بعد عشرين دقيقة سنزل في مطار طهران » .

صالة الترانزيت تحلق فوقها كآبة غريبة . تلك التي تجدها في كل صالات الترانزيت عندما يزحف عليها الليل : وساعات الانتظار الطويلة . في دورة المياه وقف خمسة من الرجال بأثوابهم البيضاء التي تشبه لباس العرب . وأماطيهم الخادة تنهى عند لحي طويلة مدبية وخطها الشيب ، يتوضأون عند حنفيات المياه . ويتبادلون الحديث في كلمات صوتها أبحش . خرجت وجلست على مقعد عند نهاية الصالة الفسيحة . كانت مكتظة بعشرات المسافرين . . . وجوه يابانية متشابهة . صامتة . تجلس في سكون بدون حركة ، أو تغلق عيونها في نوم عميق .

بين وقت وآخر كنت أفاجأ برجل أو امرأة تنتفض واقفة لتقوم ببعض الحركات الرياضية مثل دمبة ميكانيكية . ثم تجلس من جديد . شيء فيهم ، لا أدري ماذا : ربما نظرة العيون الصغيرة أو الصمت ، أو الحركات المنظمة . تثير القلق . إلى جوارى سمعت صوتاً أمريكياً عالياً ومزعجاً يمحط الكلمات : فالتفت ناحيته لأجد عملاقاً أحمر الوجه . عريض المنكبين ، يتحدث إلى شاب طويل بالغ النحافة تنطق قسماته بأصله الفارسي ترك شعر رأسه ينسدل على ظهره . وقد ارتدى سترة طويلة تضيق عند الكتفين العاليتين . كان يتطلع إلى الرجل الأمريكي في

شيء قريب من الإعجاب ، كأنه يستمع إلى الحكم الغالية . تذكرت للحظة منظراً طالما شاهدته في القاهرة . ذلك الجمع الصغير من الأساتذة المصريين الذين يتجمعون في الحفلات والمؤتمرات حول كل «خبير» من الغرب يستمعون إليه كأنه يقول ما لم يقله أحد من قبل .

انغمست مرة أخرى في مقعد الطائرة المريح . صالات الترانزيت هكذا دائماً تثير فيك التساؤلات ، ورغبة في أن تحترق الستار .

كانت المحطة الثانية نيودلهي . لم تكن فترة الانتظار فيها طويلة . فجلسنا في الطائرة تنتظر . الحرارة اللافتحة تهب علينا ، والعرق يسيل من فرط الرطوبة . على أرض المطار تتحرك الأجساد السمراء ، وضابط في لباسه الأبيض يتناقش في عصبية ، وأياد تلوح في غضب وفي السماء تحوم الحدا في مجموعات لا نهاية لها ، باحثة عن شيء تنقض عليه . لمحت من النافذة الصغيرة الحقول المنبسطة ، وإخاموس الأسود يغوص بأقدامه وسط النبات الأخضر . . أشياء تذكرني بمصر .

لن تبقى الهند كتاباً مغلقاً . سأفتح الكتاب في رحلة العودة .